

دور العمل الإيجابي في وقاية النفس من الحرص وسبل العلاج من آثاره في ضوء رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي^(١)

د. سامر سمارة

جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

مقدمة:

لقد فطر الله في الإنسان الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشه ومصالحه الدنيوية، لذلك فهو يسعى بصورة مستمرة إلى تحصيلها، ويرغب في الاستزادة منها ليتلذذ بها ويستمتع، وكلما تلذذ أكثر تطلعت نفسه إلى المزيد، وسعت إلى الاستئثار بها دون الآخرين، يقول الإمام النورسي رحمه الله: «كيف لا وهو المفطور على حبّ البقاء والخلود، فمن هنا دخل إبليس لأبينا آدم..»^(٢)، ولما كانت الحياة قائمة على سنة التدافع، فإنّ البشر ينخرطون ضمن هذه السنة في محاولة الاستئثار بالتصيب الأكبر من مُتَع الدنيا وزينتها، والإحفاء في طلبها والاستقصاء في تحصيلها، وجشع النفس عليها.

ومردّد هذا نابغ من صفات نفسية داخلية، وخلق في التفكير، وقصور في فهم حقيقة الحياة، وحقيقة الوجود فيها، فالمادّيون يعتقدون أنّ السعادة في الحياة نفسها، وما فيها من المتع والملذات المادّية، فكلّما تمّ تحصيل مُتَع وملذاتٍ أكثر؛ كانت السعادة أعظم، فالعلاقة بينهما مطّردة، لذلك هم يقصدونها بحثًا عن سبب السعادة. لكنّ الحقيقة أنّ كل هذا إنّما هو موقوت بزمانٍ سرعان ما ينتهي، فلا هو يروي النفس المتعطّشة للتلذذ، ولا يلي طموحاتها ورغباتها بديمومة هذه المتع والملذات، أعمالهم كسراب ببيعة يحسبه الظمآن ماءً، حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وجهودهم يبذلونها ثمّ تكون عليهم حسرة، كذلك يرجع الأمر إلى عوامل خارجية ومؤثّرات محيطية بالإنسان تُعزّز من نمو صفة الحرص وتزيد من تأثيرها^(٣).

(١) السيرة الذاتية (٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) الشعاعات، الشعاع الرابع (٨٢/٤).

(٣) ينظر: المرجع السابق (٨٢/٤-٨٤)، وسيرة ذاتية (١٤٧).

وقد ابتليت البشرية منذ بداية القرن المنصرم . خصوصاً بعد أفول شمس الخلافة الإسلامية، بسيطرة الحضارة الأوروبية المنبثقة من الفلسفة الطبيعية والمادّية الجاثية على عقول الناس وطرق تفكيرهم؛ فتحكّمت بمصائرهم، وقلبت السيّئات إلى حسنات، وبرزت القيام بالأعمال السلبية بوصفها وسائل لتحقيق السعادة الموهومة، فتجسّدت المادّية نظاماً علمياً قبيحاً سحق تحت وطأته الثّقيلة كل معاني الإنسانية والرّحمة والتعاون، وأغلق الأبواب أمام التّواصل الإنساني الإيجابي، وأصبح وكراً لكلّ صفة سيئة وسلبية تولّد داخلها بغضاً وحقداً وصراعاً مذموماً ظاهرًا وباطنًا بين البشر^(١).

وحتى لا يفهم كلام الشّيخ رحمه الله عن الدّنيا بصورة خاطئة، فقد بيّن أقسام الدّنيا، ووضّح أثر كلّ قسم منها على الإنسان فقال: «ثمّ نظرت إلى الدّنيا التي عشقها أكثر الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن أنّ هناك ثلاث دُنى كلبية قد تدّاخل بعضها في البعض الآخر، الأولى: هي الدّنيا المتوجّهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها. الثانية: هي الدّنيا المتوجّهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها. الثالثة: هي الدّنيا المتوجّهة إلى أرباب الدّنيا وأهل الضّلالة، فهي لعبة الغفلة وهوهم»^(٢).

يُلاحظ ممّا سبق أنّ تحذير المصلح النورسي رحمه الله ينصبُّ على القسم الثالث من أقسام الدّنيا لما تركه من آثارٍ سلبيةٍ على النّفس البشرية: من انشغالٍ عن الحقّ، وغفلةٍ عن القيام بالواجبات، أمّا القسمين الأوّلين فلا ضير من العيش في ظلالهما؛ فهما يدعوان الإنسان إلى التّقرب لله سبحانه وتعالى، ويعينانه على الثبات على الصراط المستقيم. ولأنّ الشّيخ رحمه الله كان صاحب نظرةٍ ثابتة، وحكيماً في تقدير الأمور، فقد شخّص الأسباب الرئيسية التي تولّد الحرص في النّفس البشرية، وتعهّده بالرعاية، وترفده بأسباب البقاء، ووصف لها الأدوية الشّافية الفعّالة التي تقي النّفس من هذه الأسباب وتشفيها حال الإصابة بها.

المبحث الأوّل: أسباب تولّد الحرص وتجنّد المادّية في النّفس الإنسانية.

تعدّد الأسباب المولّدة للحرص داخل النّفس البشرية، والباعثة لها على سلوك سبيل المادّية والتّشبيث بها، وقد ذكر المصلح والمجدّد سعيد النورسي في رسائل الثور جملة من هذه

(١) ينظر: للمعات (١٧٧-١٨١).

(٢) السيرة الذاتية (٢٥٢، ٢٥٣).

الأسباب، وبعد تحليلها والوقوف على مضامينها وجدت أنها تندرج تحت قسمين رئيسين،
الأول: أسباب نفسية داخلية، الثاني: أسباب خارجية، والتفصيل على النحو الآتي:

المطلب الأول: الأسباب النفسية الداخلية.

ويقصد الشيخ بها تلك الصفات السلبية المتغلغلة داخل النفس البشرية، والتي يتعرّز
تأثيرها، وينعكس على السلوك بسبب: غياب التوجيه والتربية، وقلة العلم، فتنحط رتبة
الإنسان من منزلة التكريم الإلهي إلى منزلة الحيوانية البهيمية التي قال الله تعالى في شأنها: ﴿إِنَّ
هُمْ إِلَّاكَا لَا تَعْمُونَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

ويمكن ردُّ كل هذه الصفات السلبية إلى أصلين رئيسين هما: خلل تربوي، والثاني:
قصور فكري.

أولاً: الخلل في تربية النفس البشرية.

النفس البشرية مثل الأرض، يصلح أن ينبت فيها النافع والضار، وعلى قدر الاهتمام
أو الإهمال تكون النتائج ثماراً نافعة، أو شوكاً وعلقمًا، ومن هنا يتجلّى معنى التكليف الإلهي
للإنسان المأمور بحثِّ نفسه وإلزامها بما فيه نفع لها دنيا وأخرى، والنأهي لها عن كل ما فيه
ضررٌ في الدنيا والآخرة.

فإذا أهمل الإنسان تربية نفسه نبتت فيها الأخلاق الدميمة، والصفات السيئة، وسوّلت
له نفسه كلّ خطيئة، فجلبت عليه الويلات وأوردته المهالك، يقول الشيخ: «إِنِّي مَا أُبْرِي
نَفْسِي أَبَدًا أَنهَا تَرُومُ كُلَّ فِسَادٍ، وَذَلِكَ بِمَضْمُونِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنْ أَنْتَفَسَ
لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَحَرْتِي﴾^(٢)» إن نظرة الشيخ النورسي للنفس البشرية بواقعية على
اعتبار أنها عرضة للأمراض الداخلية والخارجية سهّل عليه تشخيص الأمراض والوقوف على
حقيقتها ومعرفة مصدرها، لذلك نراه يفصّل في بيان الخلل النفسي التربوي الداخلي، وما
ينتج عنه من أخلاق ذميمة وصفات سيئة تولّد صفة الحرص في النفس وتدفعها نحو المادية
وهي على النحو الآتي:

(١) سورة الفرقان: آية ٤٤.

(٢) سورة يوسف: آية ٥٣.

١. الحسد النَّاشئ من الرَّغبة في تحصيل المنافع المادِّيَّة والمعنوية: وهذه أكثر ما يُبتلى به أصحاب التَّيارات والحركات الإسلاميَّة كما ذكر المصلح سعيد التُّورسي، وبيان ذلك: أنَّهم على اختلاف توجُّهاتهم أصحاب هدف وهمَّ واحدٍ وهي بيان الحقِّ للنَّاس وإرشادهم إليه، من غير تعيين لأجرة ماليَّة، أو تطلُّع لحظٍّ اجتماعيٍّ، أو إطرأٍ أو شهرة؛ لأجل ذلك يلقون التَّقدير والاحترام من قِبَل الأُمَّة، مصحوبًا بشيءٍ من الهدايا والصَّدقات والدَّعم المالي لمساندتهم وإغنائهم ودفع حاجاتهم الدُّنيويَّة، ولما كان المرشَّحون لهذا المقام الواحد كثر، والدُّنيا ضيقَّة ومؤقَّتة؛ يشوب البعض شيءٌ من الرَّغبة في عِزَّة الرِّئاسة، أو شهوة خفيَّةٍ في المنافع الدُّنيويَّة؛ فيبدأ الشَّقاق، ويحدث الافتراق، ويحتدم التَّنافس والتَّحاسد، فيفسد الإخلاص تدريجيًّا؛ ويتحوَّل الهدف من خدمة للدين إلى الوصول والحصول على الدنيا^(١).

٢. الطَّمع في الجاه.

ذكر الإمام التُّورسي رحمه الله أنَّ حبَّ الجاه وتطلُّع النَّفوس إلى نيله أمرٌ طبيعيٌّ في النَّفوس البشريَّة، وهو متفاوت في النَّسب والمقادير، فمن رغبةٍ جزئيَّةٍ في نيل حطام بسيط، إلى حبِّ جارٍ لتبوء مواقع مرموقة ورفيعة في عيون النَّاس، وبعدها نقطة ضعفٍ خطيرةٍ في الإنسان يسهل اختراقه من قِبَلها بسبب خفائها، وتكمن خطورة الطَّمع في الجاه في نشوته الدَّافعة للإنسان إلى التَّضحية بجياته في سبيل إشباع هذه الرَّغبة، وبريقه الجارف إلى دوامةٍ رذائل الأخلاق والتَّصرفات في سبيل الحصول عليه^(٢).

دليل ما ذُكر قول النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(٣) فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف أكثر إفسادًا للدين من إفساد الذئب للغنم.

٣. قلة الصَّبر على سلوك طريق الحق، واستعجال جني الثَّمرات، وهذا ناتج من انعدام الإخلاص وضعف التربية عند السَّالك لهذا الطَّريق، وكما هو معلوم فإنَّ الطريق إلى الآخرة طويلة وشاقة تعترضها كثير من العوائق والقواطع، وحتىَّ يجتازها المرء بسلام فعليه

(١) اللمعات، اللُّمعة العشرون (٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٣٨).

(٢) المكتوبات، المكتوب التاسع والعشرين، القسم السادس (٤/٥٣٢، ٥٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي في باب الزهد، باب (٤٤) حديث رقم (٢٣٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

أن يتزوّد بنوعين من الرّاد: الإخلاص لله، والرفقة الصالحة، وبدون هذين الرّادين لا يستطيع المرء المواصلة؛ بل يكلّ ويمل، ويتعجّل قطف الثمرة، فيضل عن سواء السبيل، فيتبدل الحال من طالب للآخرة إلى متهافت على مُتّع الدنيا وملذّاتها^(١).

٤. الإسراف المولد لعدم القناعة، وهو نابع من عدم الرضا بما قسمه الله للإنسان من رزق، والشّعور بالظلم حيال ما أُعطي الآخرون، لذلك فهو يسلك السبيل غير الشرعية لإشباع رغباته المادّية، تاركًا ما زرعه الله من الحلال، وكلّما استبد الحرص بالإنسان، استرقه، وسبب له العناء والشقاء، ويشبه الشّيخ اللاهثين وراء متاع الدنيا بالحيوانات المفترسة التي تحصل على رزقها بعد جهد ومشقة عظيمتين فيقول: «بينما لا تحصل الحيوانات المفترسة التي تنقض على فرائسها بحرص شديد إلّا بعد لأبي كبيرٍ، وتحرّ عظيم»^(٢) فلا يهتم الحريص، ولا يُشبع جشعه إلا استكثار الأموال واكتنازها، دون أن ينتهي الى حد محدود، فكلما أدرك مأرباً طمّح الى آخر، وهكذا يلج به الحرص أبواب المحرّمات والممنوعات، وتستعبده الأطماع، حتى يوافيه الموت فيغدو ضحية العناء والخسران، يقول الشّيخ رحمه الله تعالى موجّهاً نصحه إلى عدم القانعين: «فيا أيها الأخوة المشدوهون من هموم العيش، والهائمون في الحرص على الدُّنيا، كيف ترضون لأنفسكم الذلّة والمهانة في سبيل الحرص - مع أن فيها من الأضرار والبلايا - وتقبلون على كلّ مالٍ دون أن تعبأوا أهو حلال أم حرام؟»^(٣).

ثانياً: قصور في الفكر.

الفكر هبة فطريّة منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان ليستدلّ بها عليه، ويعلم من خلالها مقصد خلقه ووجوده على هذه الأرض، ولا بد لهذه الهبة أن تتناغم مع حركة الحياة التي يجيهاها الإنسان لتكون المخرجات والنتائج سليمة وصحيحة، وهي أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها دار ممر وليست دار مستقر، لكن إذا ما اختلّ ميزان الفكر، وانحرف عن مساره الصّحيح جاءت النتائج سلبيةً مشوّهة، من ذلك: أن يقوم الإنسان بالفصل بين الدّين

(١) ينظر: للمعات، اللمعة العشرون (٢٣٢).

(٢) ينظر: المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون (٣٥٢).

(٣) المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون (٣٥٢).

والحياة؛ معتقداً أن السعادة في الحياة نفسها، في مُتعتها وملذاتها، وأنه ما خلق إلا ليتمتع بها، ومسببات القصور الفكري عند الإنسان الآتي:

١. طول الأمل، ومقصود الإمام النورسي رحمه الله أن نسيان تذكر الموت، والغفلة عن ملاحظة فناء الدنيا وزوالها؛ يولد في الإنسان شعوراً بالرغبة في البقاء مدة أطول فيها، وكلما تقدّم به العمر؛ تجذرت هذه الفكرة في عقله ووجدانه، فزاد تمسكاً بها، وانفتحت شهيته لمزيد من المتع والملذات، وصار لسان حال نفسه: هل من مزيد؟؟، إنه يبني آمالاً عريضة في مخيلته تمتد لمئات السنين، وهذا الحال ليس بمستغرب، فالإنسان مفطور على حُبّ البقاء والخلود، ومن هنا دخل إبليس لأينا آدم عليه السلام لما قال له^(١): ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٢).
٢. غلبة الهوى وسيطرة الوهم، إن من طبيعة النفس البشرية رغبتها في تحصيل الملموس والعاجل من اللذائذ وإن كانت قليلة، ورفضها للذائذ الغائبة المؤجلة وإن كانت كثيرة، لذلك فإن أحاسيس الإنسان عندما تتذوق قطرة من اللذائذ الحاضرة تهيج وتلتهب، فلا يبقى عندها للعقل دور وأثر في الحكم على الأشياء وتسيير أمور النفس؛ بل تخضع لسلطان الهوى، والحرص إذ يحقق للإنسان تذوقاً سريعاً للملذات فإنه يوقعه أسيراً في وهم أن المادية هي سبيل العيش السعيد، والحياة الهانئة^(٣).
٣. الشعور بالاستغناء عن الآخرين، ويقصد به الإمام النورسي أن الإنسان إذا امتلك أسباب الصحة أو المال أو العلم؛ تولد لديه طغيان داخلي يوهمه بالاستعلاء على الآخرين وعدم الحاجة إليهم، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾^(٤) ومن هنا تبدأ القطيعة بينه وبين الآخرين، فهو يندفع للحصول على مزيد من أسباب التفوق والاستغناء المادية، ويستخدم في سبيل ذلك كل السبل المتاحة، فتكون النتيجة وحشة بينه وبين المجتمع، وتجرّد من الرحمة تجاه الآخرين^(٥).

(١) ينظر: الشعاعات، الشعاع الرابع (٨٢)، اللمعات، اللمعة الحادية والعشرون (٢٤٥).

(٢) سورة طه: آية رقم ١٢٠.

(٣) ينظر: اللمعات (١١٨، ١١٩).

(٤) سورة العلق: آية رقم ٦.

(٥) ينظر: اللمعات، اللمعة الخامسة والعشرون (٣٢٩-٣٣١).

المطلب الثاني: الأسباب الخارجية.

كما أنَّ هناك أسباب وصفات داخلية تدفع النَّفس للمضيِّ قُدماً في طريق الحرص، كذلك هناك جملة من الأسباب الخارجة عن إرادة الإنسان، والتي تنشأ من تصرُّفات وسلوكيات الإنسان نفسه أو غيره، ومن هذه الأسباب:

١. تعطيل الشعائر الدينية، ويقصد الإمام النَّورسي بها هنا تعطيل تطبيق الزَّكاة وعدم تحريم

الرِّبَا، فالزَّكاة فرضها اللهُ سبحانه وتعالى طُهرةً للقلوب وتزكيةً للنفوس، لقوله تعالى:

﴿حٰذِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(١) ولا تقف أهميتها على هذا المستوى

الشخصي؛ بل تتعدى آثارها لتؤسس سعادة البشرية ورفاهها جميعاً، فهي تُؤمِّن الرَّحمة

والإحسان من الخواص تجاه العوام، وتضمن الاحترام والطاعة من العوام تجاه الخواص،

وإذا لم تؤدِّ الزَّكاة اختلالاً هذا الميزان بين الطَّبقتين، واشتعلت نار الحقد والعصيان فيما

بينهما، وتوقَّدت حرب معنوية مستديمة تؤوِّل إلى اشتباك فعليٍّ بينهما.

وممَّا يَوجِّحُ سُعار الكراهية بين طبقات المجتمع، ويُذكي نار الحقد بينها، جريان الرِّبَا بين

النَّاس، فهو رأس الأناية وعماد المادِّيَّة، والصُّورة البشعة لاستغلال حاجات النَّاس لتكثير الأرباح،

وزيادة الثروات، شعاره: اكسب أنت لاأكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا^(٢).

٢. تزيين مُتَمِّع الدنيا لإثارة المشاعر والحواس وذلك من أجل تحويل الإنسان إلى آلة

مستهلكة تندفع لتلبية غريزة الاستهلاك، حيث يُبيِّن الإمام أن تزيين مُتَمِّع الحياة الدُّنيا

بصورة جَدَّابة -من قبل أهل الضلال له أثرٌ على جهاز الحرص في الإنسان، إذ إنَّ

تزيين المُتَمِّع الدُّنيوية يثير لدى الإنسان الفضول للاطلاع أكثر على هذه المُتَمِّع، وبذلك

يتحول العقل والقلب إلى تابعين للنَّفس الأمارة بالسوء والتي تقودهما إلى ترك أموراً دينيَّة

ثمينة لحاجات مادِّيَّة صغيرة تافهة^(٣)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الضَّلٰكَةَ بِالْهُدٰى وَالْعَذَابَ بِالْمَعْفِرَةِ﴾^(٤).

(١) سورة التوبة: آية رقم (١٠٣).

(٢) ينظر: الملاحق في فقه الدَّعوة (١٣٣-١٣٥).

(٣) المرجع السَّابق.

(٤) سورة البقرة: آية ١٧٥.

إنَّ هذه الحال قد ولَّدت لدى الإنسان تطلُّعًا للاستزادة من مُتَع الدُّنيا، مع إسراف متزايد وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشَّدِيد، فضلاً عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش^(١).

٣. تقليد الآخرين: إنَّ زيادة الاعتناء بالمظاهر الخارجية، والتركيز على الأمور الدنيوية، مع انتشار ثقافة التطلُّع إلى ما يفعله الآخرون وتقليدهم، كَثُرَ متطلُّبات الحياة وضيق مواردها، وحوَّل الكماليات إلى ضروريات، فصارت الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان في كلِّ وقت، وصارت الأمور الدنيوية والأخروية أمرًا ثانويًّا^(٢)، وقد صدق قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾^(٣).

٤. تجويع الناس وإغراقهم في هموم العيش، حيث يسعى أهل الباطل بصورة حثيثة إلى تطبيق هذه الخطأ؛ لصرف النَّاس وخاصة أهل الإيمان منهم عن مشاعرهم الدِّينية أو تخفيف الاهتمام بها، فيصبح همُّهم الأوَّل دنيويًّا بحثًا؛ وذلك بالسَّعي لتحصيل أوقاتهم وسدَّ جوعتهم، ولحظات الجوع من أخطر اللحظات الفارقة في حياة النَّاس، ولأنَّها تؤدِّي بفريق منهم إلى سلوك سبل غير شرعية لتحصيل ما يريدون دون مراعاة للضوابط الشرعية أو التزامًا بالحدود الأخلاقية^(٤).

المبحث الثاني: آثار الحرص والمادية على حياة الفرد والمجتمع.

يُعدُّ الحرص على الدنيا معوِّفًا عظيمًا أمام تحقيق التعاون الإيجابي البنَّاء بين البشر الذي يُفضي إلى تعطيل الاستخلاف الحقيقي للأمور به من الله سبحانه وتعالى، كما يُمثِّل مفتاحًا من مفاتيح الشَّر المستطير المفضية إلى الخسران الأخروي الأبدي، وهو رأس الشَّقَاء الذي يُطل على البشرية، فينفث سمومه، ويث شروره التي سرعان ما تجرِّي في العروق فتقضي على الجسد.

وللوقوف أكثر على عظم خطورته لا بدَّ من بيان آثاره وتجليه مخاطره، وهي الآتي:
أولاً: إبطال دور التفاعل الإيجابي بين بني البشر، يرى الإمام النورسي أنَّ التفاعل

(١) ينظر: المكتوبات، المکتوب الثاني والعشرون (٣٥٥-٣٥٦).

(٢) ينظر: الملاحق في فقه الدَّعوة (١٤٥، ١٤٦) و اللمعات، اللمعة التاسعة عشرة (٢١٥، ٢١٦).

(٣) سورة إبراهيم: آية رقم (٣).

(٤) الملاحق في فقه الدَّعوة (١٦١، ١٦٢).

الإيجابي سنة إلهية أوجدها الله سبحانه وتعالى لعمارة الكون، وتحقيق معنى العبودية الحق لله رب العالمين، والنظر إلى بديع خلق الله تعالى يرى أن هذه السنة متوافرة في جميع مخلوقاته الصغير والكبير، حتى جسم الإنسان يتجسد فيه هذا القانون الرباني، والحرص مضاد للتفاعل الإيجابي، فهو قائم على الأناية الفردية وحب الذات، أما التفاعل الإيجابي فهو قائم على التعاون والتشارك بين مجموعة لإنجاز وإتمام هدف ما.

ثانياً: يوقع الفرد والأمة في حياة الذل والمهانة، ويوجب عليهما صنوف الحرمان والدناءة، ويضرب الإمام التورسي مثلاً على ذلك بأمة اليهود، فما أصابهم من ذل ضرب عليهم، ومسكنة وهوان تلبستهم إلا بسبب حرصهم الشديد على الدنيا، وتهالكهم عليها أكثر من غيره من الأمم، ويُعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١) فتهالكهم على جمع المال من الحرام ألحق بهم صنوف الذل والمهانة من قبل الأمم الأخرى^(٢).

إن الذي يحرص على الحياة، يسعى إليها بشئ الصور والوسائل، حتى لو كان ذلك على حساب كرامته وشرفه، وهذا يؤدي إلى الجبن، واحتمال الضيم، ويجعل الأمة التي تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

ثالثاً: ينزع بركة الرزق والعمل، ذلك أن الحرص يولد عند الإنسان صفة الطمع، وهي صفة سلبية تدفع بصاحبها للاستيلاء على ممتع الدنيا وأرزاقها لوحده؛ مما يؤدي إلى تقليص عدد المستفيدين من هذه الأرزاق، ويحرمهم من الانتفاع منها، بينما يرمي العمل الإيجابي إلى توزيع المنافع والفوائد على أكبر قدر من المستفيدين؛ فتحل بذلك البركات المادية والمعنوية، ولعل أبرز مثال على ذلك منع الزكاة، يقول الإمام التورسي: «... إنكم تدعون في سبيل الحرص باباً عظيماً تفيض منه البركة والغنى على كل فرد، ودفع عنه البلايا والمصائب. فالذين لا يؤدّون زكاة أموالهم لا محالة يفقدون أموالاً بقدرها، ويبدّدونها إما في أمور تافهة لا طائل وراءها، أو تلمّ بهم مصائب تنتزعها منهم انتزاعاً»^(٣).

رابعاً: الحرص جالب للفقير ومسبّب للشقاء، فهو سبب للخيبة، وقائد للحرمان، حتى

(١) سورة البقرة: آية رقم ٩٦.

(٢) ينظر: المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون (٣٥١، ٣٥٢) واللمعيات، اللمعة التاسعة عشرة (٢٢١).

(٣) المرجع السابق (٣٥٤، ٣٥٥).

انتشرت بين الناس عبارة مشهورة «الحريص خائب خاسر»^(١).

خامساً: الحرص مولدٌ للشُّح المفضي إلى وقوع المنازعات بين البشر، فيؤدِّي إلى إفساد المودَّة والمحبة بين الأهل، ويُقطع الصلات المتينة بين الناس، وذلك أن الشُّح مولدٌ لصفة الأنانية في نفس الإنسان، فيسعى بكل السُّبيل للوصول والحصول على مادِّيات الدُّنيا، حتى ولو كان ذلك على حساب صلاته بالآخرين، فحينئذٍ تقع الخصومات والعداوات بين النَّاس، فينفرط عقدهم، ويبطل اجتماعهم، ويُلغى التَّفَاعُل الإيجابي فيما بينهم، ويحلَّ الشَّقَاء والتَّعاساة على البشريَّة^(٢).

سادساً: سبب لضالة الإنتاج؛ لأنَّ النظريَّة الماديَّة تقوم على الاستفراد بالثروة أو المكاسب، وهذا عمليًّا يعني بذل مجهول كبير، ووقت طويل في سبيل تحقيق نجاح ما، ولما كانت النَّفس البشريَّة ملولاً، صعب عليها الماضي قدماً في هذا الطَّرِيق، فإنَّ أن يكون نتاجها ضعيفاً، أو تنقطع عنه أبداً^(٣).

سابعاً: عدم بلوغ الأهداف وتحقيق الفوائد المخطَّط لها، إنَّ بلوغ أي هدف يحتاج من صاحبه إلى صبر وأناة في كل حركة أو خطوة يخطوها نحو الأمام ليصل إلى ما يريد، والحاصل أن جشع الإنسان المادِّي يدفعه إلى القفز فوق المراحل والمراتب المنطقية للوصول إلى الأهداف، فتكون النتيجة سقوطاً مدوياً غير متوقَّع، أو تخطُّياً لإحدى المراتب المهمة الموصلة إلى الهدف، وبذلك يعجز عن التقدم أو الرجوع^(٤).

ثامناً: مسبب للتوتر النَّفسي والضغط المتزايد على الإنسان ممَّا يسبب القلق وأمراض الضغط، ذلك أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء واستولى عليه، خشي فواته وذهابه منه، وهذا يجعله في قلق دائم وتوترٍ مستمرٍّ، وتفكيرٍ متواصلٍ حول فراق هذه المحبوبات^(٥).

(١) اللمعات، اللمعة السابعة عشرة (١٨٧).

(٢) ينظر: اللمعات، اللمعة العشرون (٢٣٧، ٢٣٨).

(٣)

(٤) ينظر: المكتوبات (٣٤٧-٣٥٠).

(٥) ينظر: ملاحق (١٤٤).

المبحث الثالث: علاج الحرص.

يتعرّض بدن الإنسان لعديد من الأمراض، ويُبتلى بالكثير من الآفات، لذلك يسعى أهل الاختصاص من أطباء وعلماء العقاقير إلى وقاية الأجسام منها وشفائها حال الإصابة بها وذلك باختراع الدواء المفيد والنافع، وتوصيفه بصورة صحيحة للمرضى، كذلك حال نفوس البشر تُصاب بالأمراض والآفات، فيتصدى المرثون والمصلحون لها وقاية وعلاجًا. ومن المرين الكبار الذين تصدوا لتشخيص أمراض النفوس وعلاجها، المصلح بديع الزمان التورسي، فقد أدى ذلك بصورة تطبيقية في ممارساته وأعماله اليومية، رغم الأذى الذي ناله، والتضييق الذي لحق به، وقد ترجم هذه الأفعال حروفًا مضيئة في رسائل النور التي انتشرت بصورة كبيرة بين المسلمين.

ومن الظواهر السلبية التي عاجلها المصلح التورسي في رسائل النور ظاهرة المادية أو الحرص على الدنيا، وذلك بالاعتماد على ثلاث مرتكزات أساسية وهي:

المطلب الأول: تفعيل فكر العمل الإيجابي في شتى المجالات.

وذلك من خلال نشره في أوساط المجتمع ليكون السمة الغالبة على تصرفات الناس وسلوكياتهم، ويرى التورسي أن الإسلام بتشريعاته وخاصة العبادات الجماعية: كالعيد، والجمعة، والجماعة، تُعزّز هذا الفكر بين الناس، وترسخه ليصبح حقيقة ثابتة، فتنتظم العلاقة فيما بينهم، وتسود روح الثقة، فيسهل التعاون، وتعم المشاركة الفاعلة^(١).

ومن امتدادات الفكر الإيجابي، التوافق فيما بين الجماعات والأحزاب التي أخذت على عاتقها خدمة الدين وتعليم أحكامه للناس، وذلك بأن يعمل كل إنسان بمقتضى ما يعتقد به من مسلك أو فكر دون المساس بأفكار الآخرين وطرقهم تصويبا وتخطئة، أو التّهوين من شأنهم.

إنّ انتهاج مبدأ التخصصية من قبل الجماعات الفاعلة على الأرض، مع التطوير الدائم للأداء، مرافقا له ضرورة إنصاف الآخر يُمثّل استراتيجية بناء عظيمة تتشارك فيها هذه الجماعات لتحويل جهودها إلى حركة جبارة متناغمة تنهض بالأمة وتبني حضارتها، وتنفي عنها ظلال الخصومة والتفرق.

(١) ينظر: للمعات، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة التاسعة (١٩٤، ١٩٥).

والسّر من وراء هذه القوّة الدّاعمة لفكر العمل الإيجابي كما يرى النورسي: أنّ التّعاون بين النّاس يعني اشتراكهم جميعاً في تسخير طاقاتهم المادّية والمعنوية لتحقيق المراد^(١).

المطلب الثّاني: تصحيح الفهم عن حقيقة الدنيا.

من المعلوم أنّ الحكم على شيء فرع من تصوّره، فإذا كان التّصوّر عن الشيء غير صحيح؛ كانت النتيجة باطلة، وهذه القاعدة تنطبق على أي فكرة في الحياة، ومنها حقيقة الحياة الدّنيا والهدف من الوجود فيها.

إنّ الانحراف الذي أصاب البشريّة في العموم كان بسبب التّصوّر الخاطئ عن حقيقة هذه الدنيا والهدف من الوجود البشري فيها، فأصبحت الحياة في نظر الكثيرين هي الغاية؛ لذلك صاروا يسعون إلى التّمتع بكلّ جزئيّة فيها بغض النظر عن الوسائل شرعية كانت أو لا، وممّن انزلق في هذه الدّوامة كثير من المسلمين، فكان لا بدّ من تصحيح المسار لهم وذلك من خلال تصحيح الفهم، وتوجيهها نحو الفكرة الصحيحة، وهي أنّ الدّنيا هي التّوّاة للحياة الخالدة للحياة الخالدة ومنشأ لها، وتصور خلاف ذلك مفسد للحياة الأبديّة^(٢)، وذلك يتأتّى من خلال الآتي:

أ- النّظرة الإيجابيّة للكون، وذلك من خلال رؤية عظمة الله وإبداعه في الخلق وربط الحياة بخالقها وبأسمائه الحسنی، فجميع أنواع الجمال الموجودة في هذا الكون وجميع أنماطه وألوانه، إنّما هو تجلّيات وإشارات وأمارات جمالٍ مقدّس تعكس عظمة الله سبحانه وتعالى، يقول النورسي: «فإن شئت أن تشاهد جلوة من أنواع حسن أسماء الجميل ذي الجلال المتحلّية على مرایا الموجودات، فانظر بعين خيالية واسعة إلى سطح الأرض لتراه كحديقة صغيره أمامك، واعلم أنّ الرحمانية والرحيمية والحكيمية والعادلية وأمثالها من التّعبير إنّما هي إشارات إلى أسماء الله تعالى وإلى أفعاله، وإلى صفاته، وإلى شؤونه الجليلة»، فإذا أبصر الإنسان هذا الجمال وجد اللذة والمتعة الحقيقيّتان، وكفى بها من متعة أن يبقى الإنسان متّصلاً بخالقه وسيّده ومولاه، فهو الحیّ الباقي الذي تدوم لذّة الارتباط به بدوامه سبحانه وتعالى^(٣).

(١) ينظر: للمعات، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثامنة (١٨٨-١٩٣).

(٢) ينظر: ملاحق في الدّعوة (٤٥).

(٣) ينظر: الشعاعات، الشعاع الرابع (٨٤-٩١) الشعاع الحادي عشر (٢٦٤-٢٦٦) واللمعات، اللمعة السادسة عشرة (١٧٢).

ب- ملاحظة أحوال النَّاس من تقلُّب بين المرض والفقير، فصفة الدُّنيا عدم الدَّوام على حالة واحدة لأحد من البشر، فكم من الأقوياء من هدَّهم المرض، وكم من المترفين والأغنياء من انقلبوا فقراء، إِنَّ التَّأمُّل في هذه السُّنَّة الإلهية بقلبٍ واعٍ وعقلٍ متَّزن يشكّل عند الإنسان حالة من الوعي الكامل حول حقيقة تبدُّل الأحوال الدُّنيوية والتي بدورها تمنعه من الانجرار خلف سراب المادية، أو الإصابة بداء الحرص، لأنَّه يدرك أنَّ الاستكثار من متاع الدنيا والتمتع بلذاتها لا يدوم لأحد؛ بل إِنَّ ضريسته ستكون باهظة، لذبك يكون مستعدًّا لأيِّ حال يمكن أن يحلَّ به، وبالتالي يستطيع التَّكيِّف معها بإيجابية.

ج- النَّظر في عواقب المادية والتَّهافت على الدُّنيا، هذا التَّهافت يفني ويعدم الماضي والمستقبل، ويترك الإنسان يعاني خواء القلب ووحشة في الحياة، ويضرب الشَّيخ مثلاً على ذلك بالشباب المتهاافت على متع الدُّنيا وملذَّاتها، كالحبِّ المحرَّم أو العشق لغير وجه حق وغيرها، فمثلها تسبب له آلاماً أكثر وأعمق من ذات اللذة نفسها، وزوالها يؤدي إلى معاناة الحسرات العميقة المنبعثة من زوال اللذة، فضلاً عن العقاب الرَّهيب في الآخرة والعذاب المرير في القبر^(١).

د- التَّذكر الدائم للموت، فهو يخلِّص من حبِّ الدُّنيا والتَّهافت عليها، وينقي من وساوس النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، وينبِّه إلى سرعة زوال الدُّنيا وفنائها، ويبدد كثيراً من الآمال العريضة التي يبينها الإنسان في مخيلته^(٢)، فهو يأخذ من دنياه ما ينفع أخراه، ولا يقوم بأعمال سلبية تُلحق الضَّرر بنفسه أو الآخرين كذا لا بدَّ من فهم حقيقة الموت بأنَّه بؤابة عبور إلى الخلود الأبدي في عذاب أو نعيم فلا بد من الإعداد والاستعداد^(٣).

(١) الشعاعات، الشعاع الحادي عشر (٢٥٥).

(٢) ينظر: الشعاعات، الشعاع الرابع (٨٥، ٢٧٨).

(٣) ينظر: الشعاعات، الشعاع الحادي عشر (٢٤٣).

المطلب الثالث: ترسيخ منظومة الأخلاق الإيجابية في النفس وتفعيلها في

شئى مناحي الحياة.

تُعَدُّ منظومة الأخلاق الضابط المهم الذي يتحكَّم بسلوك الأفراد في حياتهم اليومية، والتي تنعكس على حركة المجتمع ككل، كذا تستخدم منظومة الأخلاق الأشخاص والمجتمعات على الشفاء من الأمراض الاجتماعية والنفسية والتخلص منها، ولعلاج داء الحرص ومرض المادية لا بد من تفعيل أمَّهات الأخلاق والصفات نذكر بعضاً منها، وهي الآتي:

أ- الإخلاص، إذ هو البلسم الشافي للنفس من داء المادِّيَّة ومرض الحرص، بيان ذلك: أن انعدام الإخلاص من العمل يعني تطلَّع صاحبه إلى ثواب دنيوي بحت مقابل ما يقوم به، فإذا وجد المنافس له تولَّد الحسد والمنازعة والمنافسة بين الفرقاء، ومن ثمَّ تضاربت الجهود والأهداف، وحتى يعالج المرض لا بدَّ من نثر بذور الإخلاص في القلب وتعاهدها، لأن الإخلاص يعمل على تطويع النفس للحق وإيثاره على هواها، ويرجِّح الهدى على الهوى، ويتطلَّع للأجر من الله رب العالمين. ثمَّ تطبيق ذلك يكون بقبول الحقِّ من أيِّ كان، والتعاون مع الآخرين على تطوير الوسائل الداعمة له، والسَّعي إلى إكمال النَّقص، ورأب الصَّدع والإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا الذي يطلق عليه الشَّيخ مصطلح الاختلاف الإيجابي البناء^(١).

ب- القناعة، وهي صمَّام الأمان الذي يقي الإنسان من الطَّمع والانجرار نحو هاوية الجشع، إذ القناعة تبعث في نفس صاحبها الطَّمأنينة لموعود الله بالرزق، وتغرس فيه الرضا بما قسمه الله تعالى، وتعينها على ملاحظة نِعَم الله التي لا تُحصى مقارنة بغيره من النَّاس، ثم تعزِّز فيها الإيمان الراسخ بمناسبة ذلك لجميع مخلوقته كلِّ بما أَراده الله وقسمه له^(٢)، ومن ثمَّ ينطلق الإنسان القانع في هذا الكون، مطمئن النَّفس، هادئ البال، مشتركاً مع الآخرين في إدارة عجلة الحياة وتطويرها.

ج- الصبر وتفويض الأمر لله، وهو مفتاح النَّجاح الحقيقي الذي يثبت الإنسان على

(١) ينظر: المكتوبات (٣٤٧، ٣٥٠).

(٢) ينظر: المكتوبات (٣٤٤، ٣٦٩).

سبيله، ويوصله إلى مبتغاه، وهو حلٌّ لكلِّ المشاكل، فمعيّة الله وتوفيقه مع الصّابرين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّابِرِينَ﴾، لذلك فإنَّ الصّابر يتحمّل وطأة المملدّات الدُّنيوية المؤقّتة في سبيل الحصول على تلك الدّائمة، وهو يتلقى المصائب والشّدائد برضى وسكينة، فيسهل عليه التّكليف مع الأحوال الصّعبة، حيث يحوّلها إلى منح إلهيّة تعين على التّقدّم والتّطور.

د- الأناة والتّعقل، وهما أداتان مهمّتان لضبط اندفاع النّفس لتحصيل محبوباتها، ذلك أنّ الله تعالى قد خلق سنّة كونية وقانونًا ثابتًا وهو التدرُّج والترتيب في كل شيء بمقتضى حكمته سبحانه وتعالى، فكلُّ الحوادث على وجه البسيطة تحدث وفق هذا القانون، وإذا أراد الإنسان فعل شيء ما فلا بد له من اتباع هذا القانون؛ لأنّ الذي لا يتأبى في حركاته وخطواته إمّا أن يطرّف الدّرجات فيسقط، أو يتركها ناقصة فلا يرقى إلى المقصود^(١).

الخاتمة:

بعد هذه الوقفة مع رسائل النور والاطلاع على صفة الحرص ومسبباتها وآثارها وسبل الوقاية والعلاج منها نذكر بعض النتائج المهمّة:

١. اتّصف الإمام بزهد الواضح في الدنيا ونأيه بنفسه عنها، والتّفرغ لنشر تعاليمه بين الناس؛ لتزكو نفوسهم وتطهر قلوبهم، ولا شك أنّ الأحداث العالمية التي وقعت في حياته جعلته ينحى هذا المنحى بعد أن حاول في بدايتها أن يجمع بين التربية والسياسة.

٢. يُعدُّ الحرص أحد أهمّات الشّر والذّي تتفرع عنه صفات سلبية كثيرة تنشر الخراب والمشاكل في المجتمع.

٣. الحرص والعمل الإيجابي نقيضان لا يجتمعان، فإذا ما حلَّ أحدهما في النفس أو المجتمع انتفى وجود الآخر.

(١) ينظر: المرجع السابق (٣٦٢).

٤. تعاهد النفس بالتربية الرُّوحِيَّة والفكرِيَّة السَّليمة ركيزة مهمَّة لدرء خطر الحرص عن الفرد والمجتمع.

٥. حتَّى يكون المجتمع خاليًا من آفة الحرص لا بدَّ من تفعيل دور العبادات الجماعيَّة في حياة النَّاس كذلك لا بدَّ من نشر ثقافة التَّعاون الإيجابي بين أفراد المجتمع.

المراجع والمصادر:

جميع مادة البحث مأخوذة من كليات رسائل النور.